

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ  
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ  
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 84 - 85]

### ❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

لَمَّا اعْتَدَّ الْكَفَّارُ  
بِقَوَّاتِهِمْ،  
وَاسْتَهْزَؤُوا  
بِرُسُلِهِمْ، لَمْ  
يُقْبَلْ إِيْمَانُهُمْ  
عِنْدَ نَزُولِ  
الْعَذَابِ

لَمَّا ثَبَتَ عِنَادُ الْأُمَمِ وَغِلْظَتُهُمْ، وَقَوَّتُهُمْ فِي لَدِيهِمْ وَاشْتَدَادِهِمْ، وَمُقَابَلَةُ رُسُلِهِمْ بِالاسْتَهْزَاءِ وَالْمُنَافَكَةِ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ؛ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي لَا مَفْرَءَ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى مَبِينًا لِمَا أَجْمَلَ مِنَ الْحَقِّ مُسَبِّبًا عَنْهُ، لافِتًا الْقَوْلَ إِلَى مَظْهَرِ الْعِظَمَةِ تَرْهِيبًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، أَي: عَايَنُوا عَذَابَنَا الشَّدِيدَ عَلَى مَا لَهُ مِنْ مَجَامِعِ الْعِظَمَةِ، وَمَعَاقِدِ الْعِزِّ وَنَفُوذِ الْكَلِمَةِ، كَمَا ظَهَرَ فِي هَذَا الْبَاسِ مِنْ غَيْرِ إِشْكَالٍ وَلَا إِبْطَاسٍ، وَأَكَّدُوا ذَلِكَ، نَافِينَ لِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، وَزَادَ تَأْكِيدَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، وَلَمَّا كَانَ الْكُفْرُ بِالْغَيْبِ سَبَبًا لِعَدَمِ قَبُولِ الْإِيْمَانِ عِنْدَ الشَّهَادَةِ، قَالَ: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ يَصِحُّ، أَوْ يُقْبَلُ إِيْمَانُهُمْ عِنْدَ الْإِلْجَاءِ وَالْإِضْطِرَارِ، وَهِيَ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي خَلَتْ فِي عِبَادِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَسِرَ الْكَافِرُونَ، وَتَحَقَّقَ هَلَاكُهُمْ حِينَئِذٍ، وَلَاتِ سَاعَةٌ مِنْدَمٌ<sup>(1)</sup>.

### ❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿بَأْسَنَا﴾: بَيْسٌ بُوْسًا، فَهُوَ بَائِسٌ، وَقَدْ بُوْسَ يَبُوسُ، وَ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: 165]، أَي: شَدِيدٌ<sup>(2)</sup>، وَبَيْسٌ اسْمٌ وَضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ، وَالْبُؤْسُ وَالْبَإْسُ وَالْبِأْسَاءُ: الشَّدَّةُ وَالْمَكْرَهُ، وَالْعَذَابُ، إِلَّا أَنَّ الْبُؤْسَ فِي الْفَقْرِ وَالْحَرْبِ أَكْثَرُ، وَالْبَإْسُ وَالْبِأْسَاءُ فِي النُّكَايَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 132/ 17، 133.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 202/ 13.

تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (١) [النساء: 84]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ [الأنعام: 42] (١)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، أي: عاينوا عذابنا النازل بهم (٢).

(2) ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾: (سنن) سَنٌّ يَسُنُّ سَنًّا، والسَّنُّ: الطريقة، وهي جمع سُنَّة، يقال: استقام فلان على سَنٍّ واحد، وتنحَّ عن سَنَنِ الطريقِ وسُنَّتِهِ وسُنَنِهِ، وسُنَّةُ الوجه: طريقته، وسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ: طريقته التي كان يتحرَّها، وسُنَّةُ اللَّهِ تعالى: طريقة حكمته، وطريقة طاعته، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٣) [الفتح: 23] (3)، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ [الأحزاب: 38] أي: حُكْمُ اللَّهِ (4).

(3) ﴿خَلَتْ﴾: (خلو) أصل واحد يدلُّ على تعريِّ الشيءِ من الشيء، يقال: هو خِلُوٌّ من كذا؛ إذا كان عِرْوًا منه، وخَلَّتِ الدَّارُ وغيرها تخلو، والقرونُ الخالية: المواضي، والخُلُوُّ يُستعملُ في الزَّمانِ والمكان، لكن لما تُصوِّرُ في الزَّمانِ الماضي؛ فَسَرَ أَهْلُ اللُّغَةِ: خلا الزَّمان، بقولهم: مضى الزَّمان، وذهب، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 141] (5)، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ [الفتح: 23]، أي: قد مضت (6).

(4) ﴿عِبَادِهِ﴾: (عبد) أصلان صحيحان، كأنَّهما متضادَّان، والأوَّلُ من ذَيْنِكَ الأصلين يدلُّ على لين وذلٍّ، والآخرُ على شِدَّةٍ وَغِلْظٍ. فالأوَّلُ: العَبْدُ، وهو المملوك، والجماعةُ العبيد، وثلاثةُ أَعْبَدٍ، وهمُ العباد، إِلَّا أَنَّ العامَّةَ اجتمعوا على تفرقةٍ ما بين عبادِ اللَّهِ والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عَبْدٌ بَيْنَ الْعُبُودَةِ، ولم نسمَعْهم يشقُّون منه فعلاً، ولو اشقَّ؛ لقليل: عَبْدٌ، أي: صارَ عَبْدًا، وأقرَّ بالعبودية، ولكنَّه أُمِيتَ الفعلُ، فلم يُستعمل، وأما عَبْدٌ يَعْبُدُ عِبَادَةً؛ فلا يُقالُ إِلَّا لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ تعالى، يقالُ منه: عَبْدٌ يَعْبُدُ عِبَادَةً، وتَعَبَّدَ يتَعَبَّدُ تَعَبُّدًا، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والعبوديةُ:

(1) الرَّاغِب، المفردات: (بؤس)، والزَّازِي، مختار الصَّحاح: (بأس).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 424/21، والشُّوكَانِي، فتح القدير: 4/660.

(3) الرَّاغِب، المفردات، والزَّازِي، مختار الصَّحاح: (سنن).

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 80/4.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلو)، والرَّاغِب، المفردات: (خلا).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 424/21.

إظهارُ التَّذَلُّلِ، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنها غايةُ التَّذَلُّلِ، والنَّاسُ كُلُّهُمْ عبادُ الله، بلِ الأشياءِ كُلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخيرِ وبعضها بالاختيار، وجمعُ العَبْدِ الَّذِي هو مُسْتَرْقٌّ: عَبْدٌ، وجمعُ العَبْدِ الَّذِي هو العابدُ: عِبَادٌ، فالعبيدُ - إذا أُضيفَ إلى الله - أعمُّ من العِبَادِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢٩) [ق: 29] (1).

### ✽ المعنى الإجمالي:

يخبرُ الله تعالى أنَّ الأممَ لما عاينت وقوعَ العذابِ بها؛ وحَدَّوا الله ﷻ، وكفروا بالطَّاغوتِ، ولكنَّ حيثُ لا تُقالُ العثراتُ، ولا تتفعُ المعذرةُ، وهذا كما قال فرعونُ حين أدركه الغرقُ: ﴿عَاسَتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي عَاسَمْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) [يونس: 91]، أي: فلم يقبلِ الله منه؛ لأنَّه قد استجابَ لنبيِّه موسى ﷺ دعاءه حين قال: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) [يونس: 88]، وهكذا هنا، حَكَمَ اللهُ في جميعِ مَنْ تابَ عند مُعاينةِ العذابِ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ، ويصيبُه الخُسْرانُ بكُفْرِهِ (2).

### ✽ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

معنى حرف (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ للتَّعْقِيبِ في وجهه، حيثُ جعلَ ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعاً عقيبه، أي: جعل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ مترتباً على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الآية، تابعاً له؛ لأنَّه بمنزلةِ (فكفروا)، إِلَّا أَنَّ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ الآية، بيانُ كفرٍ مفصَّلٍ مشتملٍ

عند نزول  
العذاب، لا ينفع  
النفس عندئذٍ  
الإيمان ولا التائب

بيان أنَّ الإيمان  
لا جدوى منه  
عقيب رؤية  
العذاب

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عبد).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 80 / 4.

على سوء معاملتهم وكفرانهم بنعمة الله تعالى العظمى من الكتاب والرسول، فكأنه قيل: فكفروا، فلمَّا رأوا بأسنا؛ آمنوا<sup>(1)</sup>.

### دلالة الأداة (لَمَّا) في السياق:

(لَمَّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، أفادت معنى التوقيت، وهو يثير معنى توقيت انتهاء ما قبلها<sup>(2)</sup>، وفيه "حكى حالة بعضهم، ممَّن آمن بعد تلبُّس العذاب بهم، فلم ينفعهم ذلك، وفي ذكر هذا حصُّ للعرب على المبادرة، وتخويف من التَّأَنِّي لئلا يدركهم عذاب، لا تنفعهم توبة بعد تلبُّسهم بهم"<sup>(3)</sup>.

### بلادة التعبير بالجملة الشرطية:

عبَّرت الجملة الشرطية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ عن ارتباط وثيق الصلة بما قبلها، أي: دام دُعاء الرُّسل إياهم، ودام تكذيب أممهم واستهزاؤهم بهم، إلى أن رأوا بأسنا، فلمَّا رأوا بأسنا؛ قالوا: آمنا بالله وحده، فكان هذا الإيمان في وقت لا ينفع أصحابه، وهو نزول العذاب الشديد بهم<sup>(4)</sup>.

### دلالة التعبير بالفعل ﴿رَأَوْا﴾:

جاء التعبير بالفعل الماضي ﴿رَأَوْا﴾؛ دلالة على تحقُّق رؤيتهم العذاب، أي: لمَّا شاهدوا العذاب؛ لم ينفعهم الإيمان؛ لأنَّه إيمان اضطرار، وليس إيمان اختيار، والله تعالى لا يقبل الإيمان عند نزول عذابه<sup>(5)</sup>.

### نُكْتَةُ إِضَافَةِ الْبَاسِ إِلَى ضَمِيرِ الْعِظَمَةِ:

في إسناد البأس إلى ضمير العظمة، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا﴾

حين رؤيتهم  
العذاب، أعلنوا  
إيمانهم بعد  
التكرار والغلاب

الاستمرار في  
دعوة الرُّسل،  
مع استمرار  
تكذيبهم حتَّى  
مجيء وقت  
العذاب

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 31/5، والآلوسي، روح المعاني: 12/344.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/221.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/572.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/222.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/345.

**بَأْسَنَا**، زيادة في الترهيب من عذاب الله، وتحذير من الكفر بالله، فإن مصير أهله إحاطة العذاب بهم<sup>(1)</sup>.

### دلالة التعبير بالفعل الماضي «ءَامَنَّا»:

دلّ التعبير بالفعل الماضي «ءَامَنَّا» في قوله تعالى: **«فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا»** على تأكيد نفيتهم لما كانوا فيه من الشرك، وتحققهم بالإيمان الذي نبذوه من قبل<sup>(2)</sup>.

### معنى الباء في قوله: «بِاللَّهِ»:

الباء في قوله تعالى: **«ءَامَنَّا بِاللَّهِ»**؛ للإصاق المعنوي أو المصاحبة، أي: آمنا إيماناً بما يريدُه الله ويرضاه من الإيمان، أو: مصاحباً للإيمان بالله، أي: قائماً على أساس الإيمان الحق الذي تأمرنا به الرُّسل، لا كما هم فيه من قبل<sup>(3)</sup>.

### بلاغة الالتفات في الضمائر:

لَمَّا ثَبَتَ عِنَادُ الْأَمَمِ وَغَلِظَتْهُمْ وَاعْتَدَاؤُهُمْ بِقَوَّتِهِمْ فَرَحًا وَبَطْرًا؛ قال تعالى: **«فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ»**، ثُمَّ بَيَّنَّ جَهْلَهُمْ وَذُلَّهُمْ؛ لَمَّا عَايَنُوا عَذَابَ اللَّهِ، فَجَاءَ الْبَيَانُ لَمَّا أُجْمِلَ مِنَ الْحَقِّ مُسَبِّبًا عَنْهُ، لَافِتًا الْقَوْلَ إِلَى مَظْهَرِ الْعِظَمَةِ تَرْهِيبًا، فَقَالَ بِصِغَةِ الْغَائِبِ: **«رَأَوْا بَأْسَنَا»**، أي: شاهدوا بوارق العذاب الشديد، ثُمَّ لَمَّا جَاءَ بَيَانُ حَالِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ - لَا مُحَالَةَ - ذَكَرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ مَوْقِفَهُمْ حِينَئِذٍ، فَقَالَ بِصِغَةِ الْمُتَكَلِّمِ عَنْهُمْ: **«ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ»**، وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِمْ: **«وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ»**؛ لِأَنَّنا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْ دُونِ اللَّهِ شَيْءٌ<sup>(4)</sup>.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17 / 132.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17 / 131.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17 / 131.

(4) الرَّمْخُسَرِيُّ، الْكَشَاف: 3 / 439، 440، والبَقَاعِيُّ، نظم الدرر: 17 / 131.

آمنوا إيماناً  
ملتصفاً للأمورين  
به بالإيمان

فرحوا بقوتهم؛  
فلما رأوا  
العذاب؛ أعلنوا  
إيمانهم، ونفوا  
كفرهم

## نَكْتَةُ التَّعْبِيرِ بلفظٍ ﴿وَحْدَهُ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿وَحْدَهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾؛ تأكيداً للإيمانِ الجازمِ بالله وتوحيده، ونفيًا لما كانوا فيه من الشُّرك<sup>(1)</sup>.

## معنى الواو في قوله: ﴿وَكَفَرْنَا﴾:

دلَّت الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا﴾ على انحلالِ عَرَى ما كانوا به يتفاخرون، وهَي قواهم الَّتِي كانوا بها يتعالون؛ لما رأوا بأسَ الله، بزيادةِ التَّصريحِ في قولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ بعد قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾؛ لأنَّهم علموا أنَّه لا يُعني من دونِ الله شيء<sup>(2)</sup>.

## بلغة الطَّبَاقِ في الجمعِ بين الإيمان والكفر:

صَرَّحُوا بالإيمانِ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، مترتبًا على قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الَّذِي جاءَ مترتبًا على قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ الآية، تابعا له؛ لأنَّه بمنزلةِ (فكفروا)، إلا أنَّ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ الآية، بيانُ كفرٍ مفصَّلٍ مشتملٍ على سوءِ معاملتهم وكفرانهم بنعمةِ الله تعالى العُظمَى من الكتابِ والرَّسولِ، فكأنَّه قيل: فكفروا، فلما رأوا بأسنا؛ آمنوا، ثمَّ جاءَ العطفُ على ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾؛ دلالةً على عدمِ نفعِ إيمانهم مع تأكيدهم بقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّه إيمانٌ اضطرارٍ وقتَ نزولِ العذابِ، لا إيمانَ اختيارٍ<sup>(3)</sup>.

## دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنَّا﴾:

الباءُ في ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ للإلصاقِ المعنويِّ، أي: الصَّقْنَا كُفْرَنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مشركين، ويجوزُ أن

زيادةُ التَّصريحِ  
بَكُفْرِهِمْ بِمَا  
أشْرَكُوا به وقتَ  
رؤيةِ العذابِ

الكفرُ بالْمُنْعِمِ لا  
يمحوهُ الإيمانُ  
وقتَ نزولِ  
العذابِ

عبادةُ الأصنامِ  
باطلةٌ، تنتهي  
إلى التَّندمِ  
والحسرةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 131/17.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 131/17.

(3) الألوسي، روح المعاني: 344/12، والطعني، خصائص التَّعبيرِ القرآني: 416/2، 417.

تكون للتَّعْدِيَةِ، بمعنى: للمصاحبة، أي: كَفَرْنَا مصاحِبِينَ الَّذِي كُنَّا بسببه مشركين من عبادة الأصنام وغيرها<sup>(1)</sup>.

**معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:**

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذِي)، أي: وكَفَرْنَا بِالَّذِي كُنَّا به مشركين، وفيها معنى المبالغة في تبرئهم من شركهم لما نزل بهم العذاب، وجملة: ﴿كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب<sup>(2)</sup>.

**نكتة دخول فعل الكون كُنَّا:**

في دخول فعل الكون في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، دلالة على أن ما مضى من كفرهم، إنما كان جبلةً وطبعًا، وهذا تعليل لكفرهم لإعذارهم مضطرين لما رأوا عذاب الله<sup>(3)</sup>.

**دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِهِ مُشْرِكِينَ﴾:**

الباء في ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ للسببية، أي: وما كُنَّا بسببه مشركين من الأصنام أو سائر الآلهة الباطلة<sup>(4)</sup>، والجار والمجرور متعلقان باسم الفاعل ﴿مُشْرِكِينَ﴾.

**نكتة تقديم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:**

في تقديم شبه الجملة ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ تأكيد انحلال عراهم ووهي قواهم، بزيادة التصريح ببراءتهم من شركهم الذي كانوا عليه<sup>(5)</sup>.

**دلالة التعبير بـ ﴿مُشْرِكِينَ﴾ في السياق المبين:**

الشركة والمشاركة: خَلَطُ الْمَلِكَيْنِ، وقيل: هو أن يوجد لاثنتين

تبرؤ مشركي  
الأمم من  
شركهم لما رأوا  
عذاب الله واقعًا  
بيقين

شرك الأمم في  
عبادة الله،  
نابت لهم في  
عبادتهم سواه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 131 / 17.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 525 / 8.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 131 / 17.

(4) الألوسي، روح المعاني: 344 / 12.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 131 / 17.

فصاعداً، عَيْنًا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ أَوْ مَعْنَى، يُقَالُ: شَرَكْتُهُ، وَشَارَكْتُهُ، وَتَشَارَكُوا، وَاشْتَرَكُوا، وَأَشْرَكْتُهُ فِي كَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِى﴾ (٣٢) [طه: ٣٢] (١)، وَقَدْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، فَجَعَلُوا مَعَهُ تَعَالَى غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ، مِنْ الْأَصْنَامِ أَوْ سَائِرِ آلِهَتِهِمْ الْبَاطِلَةِ (٢)، وَجَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿مُشْرِكِينَ﴾ اسْمًا وَوَسْمًا لَهُمْ بِإِشْرَاكِهِمْ مَعَ اللَّهِ، وَخَبَرًا عَنْ صِفَةِ الْإِشْرَاكِ الثَّابِتَةِ لَهُمْ الَّتِي تَبَرَّؤُوا مِنْهَا لَمَّا رَأَوْا بِأَسَى اللَّهِ.

### دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَلَمْ يَكْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ﴾ لِلتَّرْتِيبِ وَالتَّعْقِيبِ مَعَ الْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ، بَعْدَ قَوْلِهِمْ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ تَصْرِيحَهُمْ بِالْإِيمَانِ فِي عَدَمِ وَقْتِ الْإِعْذَارِ، لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، حَيْثُ جَاءَ بَعْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ﴾ تَابِعًا لِإِيمَانِهِمْ: لَمَّا رَأَوْا بِأَسَنَا (٣).

### نكتة التَّخْفِيفِ فِي الْفِعْلِ ﴿يَكْ﴾:

وَقَعَ التَّخْفِيفُ فِي الْفِعْلِ ﴿يَكْ﴾ بِحَذْفِ النَّوْنِ جَرِيًّا عَلَى مَفْهُومِ الْمَخَالَفَةِ، فَكَمَا أَنَّ زِيَادَةَ الْمَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى، فَكَذَلِكَ فَإِنَّ نَقْصَ الْمَبْنَى يَدُلُّ عَلَى نَقْصِ الْمَعْنَى، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ إِعْلَامٍ وَبَيَانٍ بَعْدَ فَائِدَةِ الْإِيمَانِ وَنَفْعِهِ وَقَتِ نَزُولِ الْعَذَابِ، فَهُوَ مَقَامُ اخْتِصَارٍ لَا مَقَامُ إِطْنَابٍ (٤).

### دلالة المضارع المنفي في ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ بِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ ﴿يَكْ﴾ وَ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى: لَمْ يَصَحَّ، وَلَمْ يَسْتَقِمَّ، فَدُخُولُ حَرْفِ النَّفْيِ عَلَى الْكُونَ، لَا

لا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ  
عَقِيبَ رُؤْيَا  
الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ

من لم يَنْتَفِعْ  
بِإِيمَانِهِ هَجَرَهُ  
كُلُّ شَيْءٍ

لا يَقْبَلُ عَلَى وَجْهِ  
الاستِمْرَارِ إِيْمَانُ  
الاضْطِرَارِ

(١) الرَّاغِبُ، الْفُرْدَاتُ: (شُرِك).

(٢) الْأَلُوسِي، رُوحُ الْمَعَانِي: 344 / 12.

(٣) الرَّمُضَشَرِيُّ، الْكُشَافُ: 440 / 3، وَأَبُو حَتَّى، الْبَحْرُ الْلَحِيطُ: 277 / 9، 278.

(٤) الْبِقَاعِيُّ، نَظْمُ الدَّرَرِ: 132 / 17.

على النَّفْي؛ لَأَنَّهُ يُوَدِّي إِلَى نَفْيِ الصَّحَّةِ، أَي: لم يصحَّ، ولم يستقم، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ (مريم: 35<sup>(1)</sup>)، فَهُمْ لَمْ يَكُونُوا لفواتِ الوقتِ مؤمنين بما طُلِبَ منهم، فلم يتجدَّدَ لهم نفعُ إيمانهم؛ لَأَنَّهُ إِيْمَانٌ إِلْجَاءٍ واضطرار، لا إِيْمَانٌ طَوَاعِيَّةٍ واختيار<sup>(2)</sup>.

**نُكْتَةُ الْعُدُولِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ﴾:**

عدلَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ عَنِ الْقَوْلِ: (فَلَمْ يَنْفَعُهُمْ) إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ﴾؛ لِدَلَالَةِ فِعْلِ الْكَوْنِ عَلَى أَنَّ خَبْرَهُ مُقَرَّرُ الثُّبُوتِ لاسمه، فَلَمَّا أُريدَ نَفْيُ ثُبُوتِ النَّفْعِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ فَوَاتِ وَقْتِهِ؛ اجْتَلَبَ كَذَلِكَ نَفْيَ فِعْلِ الْكَوْنِ الَّذِي خَبْرُهُ ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾، والمعنى: أَنَّ الْإِيْمَانَ بَعْدَ رُؤْيَةِ بَوَارِقِ الْعَذَابِ لَا يُفِيدُ صَاحِبَهُ<sup>(3)</sup>.

**نُكْتَةُ إِضَافَةِ الْإِيْمَانِ إِلَى ضَمِيرِهِمْ ﴿إِيْمَانُهُمْ﴾:**

فِي إِضَافَةِ الْإِيْمَانِ إِلَى ضَمِيرِهِمْ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ إِيْحَاءٌ عَلَى أَنَّهُ إِيْمَانٌ اضْطِرَارِيٌّ لَا اخْتِيَارِيٌّ، بِسَبَبِ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ، فَتُسَبِّ إِيْلَهُمْ تَعْبِيرًا عَنْ حَقِيقَةِ إِيْمَانِهِمْ فِي ذَاكَ الْوَقْتُ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ لَا يَعْلَمُهَا عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ، وَلَمْ يُقْبَلْ<sup>(4)</sup>.

**دَلَالَةُ ﴿لَمَّا﴾ فِي السِّيَاقِ لِلْحُكْمِ:**

قَوْلُهُ: ﴿لَمَّا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا﴾، يَفِيدُ مَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ الزَّمَانِيَّةِ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يُعَايَنُ فِيهِ نَزُولُ الْعَذَابِ؛ لَأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَصِيرُ الْمَرْءُ مُلْجَأً إِلَى الْإِيْمَانِ، فَذَلِكَ الْإِيْمَانُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ؛ لَأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِيْمَانًا مُخْتَارًا بَلْ مُضْطَرًّا<sup>(5)</sup>.

(1) أَبُو حَتَّىان، الْبَحْرُ الْحَيْطُ: 277 / 9، وَأَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 30 / 5.

(2) الْبِقَاعِي، نَظْمُ الدَّرَرِ: 132 / 17.

(3) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 222 / 24.

(4) الْفَخْرُ الرَّازِي، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ: 536 / 27، وَابِقَاعِي، نَظْمُ الدَّرَرِ: 132 / 17.

(5) الْفَخْرُ الرَّازِي، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ: 536 / 27.

تَقْرِيرُ نَفْيِ فِعْلِ  
الْكَوْنِ، تَقْرِيرُ  
لِنَفْيِ ثُبُوتِ  
النَّفْعِ

حَالُ إِيْمَانِهِمْ  
قَائِمٌ عَلَى  
الْإِلْجَاءِ لَا  
الْاخْتِيَارِ

وَقْتُ مَعَايِنَةِ  
الْعَذَابِ لَا يُتَّح  
قَبُولُ الْإِيْمَانِ

## دلالة الفعل الماضي «رَأَوْا»:

التعبير بالفعل الماضي «رَأَوْا»؛ للدلالة على نزول العذاب، وتحقيق رؤيتهم له<sup>(1)</sup>، وأن إيمانهم عند رؤية العذاب لا طائل منه؛ لأن الإيمان لا يتحقق، ولا يتصور إلا مع الغيب، وأما عند الشهادة؛ فقد كشفت سريرته، على أنه قد فاتت حقيقته<sup>(2)</sup>.

## نكتة إضافة البأس إلى ضمير العظمة:

في إضافة البأس إلى ضمير العظمة، في قوله تعالى: «بَأْسًا» زيادة في الترهيب، وإيحاء بأن بأس الله إذا جاء؛ لا يؤخر عن القوم المجرمين، وفيه تحذير للأمم من محادثة الله ورسله، واتخاذ الهوى إلهًا من دون الله في عبادة ما لا يضر، ولا ينفع<sup>(3)</sup>.

## غرض إعادة رؤية البأس:

لما رأى القوم بأس الله؛ علموا أنه العذاب الذي أنذروه، وفرغ عليه قوله: «فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا»؛ لبيان المقصد المراد، وهو أن مشاهدة العذاب لا ينفع معها الإيمان؛ لأن الله لا يقبل الإيمان عند نزول عذابه.

## نكتة فصل قوله: «سُتَّ اللَّهُ»:

جملة: «سُتَّ اللَّهُ» مستأنفة استئنافًا بيانيًا، وهي في محل نصب حال من الضمير المتصل بـ «يَنْفَعُهُمْ»<sup>(4)</sup>، جوابًا لسؤال من يسأل: لماذا لم ينفعهم الإيمان، وقد آمنوا؟ فالجواب: أن ذلك تقدير قدره الله للأمم السالفة، أعلمهم به، وشرطه عليهم، فهي قديمة في عباده، لا ينفع الكافر الإيمان إلا قبل ظهور البأس، ولم يستثن من ذلك إلا قوم يونس، قال تعالى: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا

تحقق رؤية  
العذاب صدمة  
تصيب المشركين  
بالخيبة

الترهيب  
والتحذير من  
عذاب الله،  
والتبصر بأسباب  
حصوله

الإيمان لا  
ينفع صاحبه  
حين مشاهدة  
العذاب

لا ينفع الكافر  
الإيمان ولا  
التدب، وقت  
نزول العذاب  
المؤلم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 132 / 17.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 132 / 17.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222 / 24.

(4) قباوة، للفصل، ص: 1685.

يَمْنَهُنَّ إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا ﴿يُونُسَ: 98﴾<sup>(1)</sup>.

### نوع الإضافة في قوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾:

إضافة اسم  
المصدر إلى  
فاعله، والتَّحْذِيرُ  
من العذاب

الإضافة في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ من باب إضافة اسم المصدر المؤكَّد إلى فاعله، والتَّقدير: سَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ سُنَّةً، فانتصابُ ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق؛ لأنَّ سُنَّةً اسْمُ مصدرِ السَّنَّ، وهو آتٍ بدلاً من فعله، فالجمله في ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ جوابُ لسؤالٍ مَنْ يسأل، لماذا لم ينفعهم الإيمان، وقد آمنوا؟<sup>(2)</sup> ويجوز انتصابُ ﴿سُنَّتَ﴾ على التحذير، أي: احذروا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قد خَلَّتْ في عبادِهِ<sup>(3)</sup>.

### بلاغة الالتفات من التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ:

الإمهال في زمن  
الاختيار، ولا  
نفع لذلك في  
زمن الاضطرار

لَمَّا أَظْهَرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ ما فيه زيادةٌ في التَّرهيب، في قوله تعالى: ﴿بَأْسًا﴾ بأسلوب التَّكَلُّمِ بعد الْغَيْبَةِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا﴾، مبيِّناً أنَّ الإيمانَ لا يَنْفَعُ وقتَ الإلْجَاءِ والاضطرار، ثُمَّ عادَ لأسلوبِ الْغَيْبَةِ في قوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾، أي: سُنَّةَ اللَّهِ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ الْمَذْكُورِ بِاسْمِهِ الْجَلِيلِ ﴿اللَّهُ﴾؛ تحقيقاً لما هو مقررٌ في سُنَّتِهِ تعالى، أنَّ الإيمانَ بعدَ كَشْفِ الْغَطَاءِ لا يَنْفَعُ صاحِبَهُ، بل سيَهْلِكُ، ويخسرُ بكفرِهِ، وفي هذا الالتفاتِ دلالةٌ على تمامِ قدرته تعالى، وأنَّ سُنَّتَهُ ماضيةٌ مع مَنْ هَيَّئَ لَهُ أسبابُ الهدايةِ، فكفرَ باختيارٍ ثُمَّ آمَنَ - حالَ نزولِ العذاب - باضطرار، وهذا عَيْنُ الْخُسْرَانِ<sup>(4)</sup>.

### دلالة الاسم للوصول وصلته:

التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾ بالاسم

(1) ابن عاشور، التَّحْزِيرُ والتَّنْوِيرُ: 222 / 24.

(2) أبو حَتَّانَ، البحرُ الحَظِيظُ: 278 / 9، وابن عاشور، التَّحْزِيرُ والتَّنْوِيرُ: 222 / 24.

(3) السَّمِين، الذَّرُّ للصَّون: 504 / 9.

(4) البَقَاعِي، نَظْمُ الذَّرِّ: 133 / 17.

الموصول وصلته، بغرض تخويف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأولين، بأنَّ سُنَّةَ الله في عباده الإمهال، ثمَّ المؤاخذه، ثمَّ الخسارة الفادحة، لا ينفع في ردها إيمان المؤمنين، أو شفاعَةُ الشَّافعين، فكان في ذلك كلمة جامعة في ختام الآية للغرض المبين<sup>(1)</sup>.

### نكتة التأكيد بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾:

التأكيد بـ ﴿قَدْ﴾، في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ تحقيقاً لإمضاء سُنَّةِ الله في الأممِ المكذبة إلى يوم الدين، في إهلاك مَنْ كفر بالله مع إيراد المعجزات والدلائل الواضحة، وفي ذلك إيذان بأنَّ هذه السُنَّة، هي من الله الملك الأعظم المحيط علماً وقدرَةً في الدُّهور السابقة واللاحقة<sup>(2)</sup>.

### دلالة التعبير بـ ﴿خَلَتْ﴾ في السياق:

الخلو: تعرّي الشيء من الشيء، وخلت الدار وغيرها تخلو، أي: هي خلوة من أهلها، والخلو يستعمل في الزمان والمكان، لكن لما تُصور في الزمان الماضي؛ جاء قولهم: خلا الزمان، بمعنى: مضى، وذهب<sup>(3)</sup>، ولما كانت القرون الخالية بمعنى القرون الماضية؛ كان قوله تعالى: ﴿سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾، أي: قد مضت، أي: في الأمم السابقة، ولما جاءت كلمة ﴿خَلَتْ﴾ بصيغة الماضي؛ دلّت على تحقيق هذه السُنَّة في العباد، سلفهم وخلفهم، وهي عدم نفع الإيمان وقت نزول العذاب؛ لأنَّه إيمان اضطرار لا اختيار<sup>(4)</sup>.

### دلالة الظرفية المجازية:

جاء لفظ: ﴿فِي عِبَادِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ

تخويف  
المشركين ممَّا  
حلَّ بالمكذِّبين  
الأوّلين، مسلَّك  
في الوعظ مبين

تحقيق سُنَّةِ الله  
على مرِّ الدُّهور  
أمر واقع لا  
محالة

تحقق سُنَّةِ  
الله الماضية في  
العباد إلى يوم  
المعاد

السُنَّةُ الماضيةُ  
في العباد  
تعذيب المارقين  
واستئصالهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 224 / 24.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 132 / 17.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلو)، والزَّاعِب، المفردات: (خلا).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 132 / 17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 31 / 3.

**خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ** ﴿ لِلظَّرْفِيَّةِ المجازيَّةِ، أي: سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قد مضتْ في زمنِ عبادِهِ السَّالِفِينَ - الَّذِينَ ضَلُّوا طريقَ الحقِّ، فأرسلَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ إرشادًا للحقِّ وإعزازًا بهم - هي تعذيبٌ من كَذَّبَهم، واستهانَ بهم، باستئصالِهِم وقَطْعِ نَسْلِهِم<sup>(1)</sup>.

### سُرُّ الإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْعِظَمَةِ فِي ﴿عِبَادِهِ﴾:

تشريفُ العبادِ  
بإضافَتِهِم إلى  
الله، يستلزم  
إيمانَهُم لا  
كُفْرانَهُم

إضافةُ العبادِ إلى ضميرِ الْعِظَمَةِ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾؛ لبيانِ أَنَّ عدمَ قَبُولِ الإيمانِ حالِ اليأسِ سُنَّةُ اللَّهِ المُطْرَدَةُ في كُلِّ الأُمَمِ، وهم عبادُهُ الَّذِينَ شَرَفَهُمُ اللَّهُ بِالْعِبُودِيَّةِ لَهُ، ولذلك أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ إرشادًا لطريقِ الحقِّ، يُعْزُ مَنْ يَتَّبِعُهُم، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَكْذِبُهُمْ<sup>(2)</sup>.

### دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَحَسِرَ﴾:

للقصدِ الأساسِ  
الختمُ للكافرينِ  
بالخسرانِ المبينِ

جاءتِ الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَسِرَ﴾ عطفًا على ما تقدَّمَهَا، وكانت مع جملَتِها في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ كالفَذْلِكِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا﴾، وبذلك أدنت بانتهاءِ الغَرَضِ من السُّورَةِ، وأعطتِ النَتِيجَةَ المتوخَّاةَ من السِّياقِ الَّذِي خَتَمَتْ بِهِ<sup>(3)</sup>.

### بلاغةُ الاستعارةِ في فعلِ الخسارة:

خسارةُ الإيمانِ  
أعظمُ من  
خسارةِ الأموالِ  
والأعيانِ

استُعِيرَ فعلُ الخسارةِ الَّتِي تَكُونُ في الأمورِ الماديَّةِ كالبيعِ والشُّراءِ، إلى الخسارةِ المعنويَّةِ في أعظمِ قضيَّةٍ، وهي قضيَّةُ الإيمانِ والكُفْرِ؛ ليدلَّ على عِظَمِ تلكِ الخسارةِ الحقيقيَّةِ، وغايةِ تمكُّنِها من صاحبِها، فهي لا تُعوَّضُ بالمالِ أو غيره من أمورِ المعاش؛ لأنَّ الخسارةَ الحقيقيَّةَ، تَكُونُ في يومِ المَعَادِ<sup>(4)</sup>.

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 278 / 9.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 536 / 27، والبقاعي، نظم الدرر: 132 / 17.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 223 / 24.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 133 / 17.

### دلالة التعبير باسم الإشارة البعيد المكان:

استعمل قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ اسم إشارة للمكان البعيد؛ للدلالة على بُعد ما هم فيه من الكفر؛ إذ آمنوا؛ لما رأوا عذاب الله نازلاً بساحتهم - لا محالة - فلم ينتفعوا بالإيمان في حال الاضطرار، ولو أنهم آمنوا في حال الاختيار والإمهال؛ لانتفعوا<sup>(1)</sup>، ولكن غلبت عليهم شقوتهم، فلم يستبينوا الحق في أوانه، وأضاعوا فرصة التوبة المتاحة، يوم جاءهم الرُّسل بالبلاغ، ونزل عليهم الوحي بالهدى والتوحيد، فأنكروا الوحي، وانشغلوا عن الحق الصِّميم، بالباطل الذَّميم، فأبوا إلى الندم والحسرة.

### بلغة الاستعارة في التعبير عن الزَّمان بالمكان:

في قوله تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، استعير ﴿هُنَالِكَ﴾، وهو اسم إشارة إلى المكان؛ للإشارة إلى الزَّمان، أي: وحسروا وقت رؤيتهم بأسنا؛ إذ انقضت حياتهم وسلطانهم، وصاروا إلى ترقب عذاب خالد مُستقبل<sup>(2)</sup>، وذلك أنه لما كان المكان لا ينفك عن الزَّمان؛ استعير ظرفه له، وليدلَّ على غاية التَّمكُّن، وعظيم الشأن وخطورته<sup>(3)</sup>.

### نكتة تقديم الإشارة على الفاعل:

في تقديم الإشارة على الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، فلم يقل: (وَحَسِرَ الكافرون هنالك)؛ للدلالة على هلاك الكافرين، وتحقيق أنَّهم خسروا - لا محالة - في ذلك الوقت العظيم الشأن، بما كان فيه، وكان من العذاب الشديد بعد الكفر الشديد<sup>(4)</sup>.

بيان مال  
الخسران في بُعد  
ما كانوا عليه  
من الكفران

الخسران وقت  
رؤية البأس،  
وانقطاع الرجاء  
في التوبة

تحقق خسارة  
الكافرين، أمر لا  
مفر من وقوعه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 278 / 9.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 536 / 27.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 133 / 17.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 133 / 17.

## دلالة (أل) في لفظ «الْكَافِرُونَ»:

(أل) التعريف في كلمة «الْكَافِرُونَ» في قوله تعالى: «وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» للعهد، أي: العريقون في هذا الوصف، فلا انفكاك بينهم وبينه<sup>(1)</sup>، فهو صبغتهم الملازمة لهم.

## نكتة العدول عن لفظ (الشرك) إلى (الكفر):

في العدول عن ضمير «الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» [غافر: 21] إلى الاسم الظاهر، وهو «الْكَافِرُونَ» في قوله تعالى: «وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ»، إيماء إلى أن سبب خسارتهم هو الكفر بالله، وذلك إعداؤ للمشركين من قريش، حتى لا يحل بهم ما حلَّ بسالفهم من المكذبين، وإمهال لهم، لعلهم يراعون، ويعودون إلى الرشاد<sup>(2)</sup>.

إعداؤ مشركي  
قريش،  
وإعطائهم  
فرصة للعودة  
إلى الحق

## ❁ الفروق المعجمية:

## العذاب والبأس:

العذاب: هو الألم المستمر والإيجاع الشديد، وأصل الكلمة: الاستمرار، ومنه يقال: ماءٌ عذبٌ لاستمراره في الحلق، ويقال: عذبه تعذيباً، أكثر حبسه في العذاب، قال تعالى: «لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا» [النمل: 21]<sup>(3)</sup>.

العذاب، البأس  
مع الألم  
المستمر

والبأس والبؤس والبأساء: الشدة والمكروه، إلا أن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النكابة، نحو: «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» [البقرة: 177]، والبأس يجري على العدة من السلاح وغيرها، كما في قوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» [الحديد: 25]، ويستعمل في موضع الخوف مجازاً، فيقال: لا بأس عليك، ولا بأس في هذا الفعل، أي: لا كراهة فيه<sup>(4)</sup>.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 133 / 17.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 223 / 24.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 354، والزأغب، المفردات: (عذب).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 89، والزأغب، المفردات: (بؤس).

## العباد والعبيد:

العبد: هو المملوك، والجماعةُ العبيد، وثلاثةُ أعبد، وهمُ العباد، والعامَّةُ يفرِّقون ما بين عبادِ الله والعبيدِ المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بينَ العُبودَةِ، وعبدٌ يعبدُ عبادةً، فلا يُقالُ إلا لمن يعبدُ اللهَ تعالى، ويقالُ للمشرَكين: عبدةُ الطَّاغوتِ والأوثان، وللمسلمين عبادٌ يعبدون اللهَ تعالى، وهم عبادُ الرَّحمنِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، وعبادُ الله: الملائكةُ والإنسُ والجنُّ، بلِ الأشياءُ كُلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخيرِ وبعضُها بالاختيار، وجمعُ العبدِ - الَّذي هو مُسترقٌّ - عبيد، وجمعُ العبدِ الَّذي هو العابدُ: عباد، فالعبيدُ - إذا أُضيفَ إلى الله - أعمُّ من العباد، ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29] (1).

العبيدُ أعمُّ من  
العباد، وكلاهما  
لفظ قرآني

## الكُفر والشُّرك:

الكُفر: سترُ الشَّيء، ووُصفَ اللَّيْلُ بالكافرِ لسترِهِ الأشخاص، والزُّراعُ لسترِهِمُ البَذَرَ في الأرض، وكُفرَ النِّعمةُ وكُفرانُها: سترُها بتركِ أداءِ شُكرِها، قالَ تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: 94]، والكُفرُ ضربان: كُفرٌ بالدِّين، وكُفرٌ بالنِّعمة، وأعظمُ الكُفر: جُحودُ الوحدانيَّةِ أو الشَّريعةِ أو النُّبوَّة، والكُفرانُ في جحودِ النِّعمةِ أكثرُ استعمالاً، والكُفرُ في الدِّين أكثرُ، والكُفُورُ فيهما جميعاً، قالَ تعالى: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 99]، والكافرُ على الإطلاق: متعارفٌ فيمنَ يَجْحَدُ الوحدانيَّةَ، أو النُّبوَّةَ، أو الشَّريعةَ، أو ثلاثَها (2). والشُّركُ في الدِّين على ضربين، أحدهما: الشُّركُ العظيمُ: وهو إثباتُ شريكٍ لله تعالى، يقال: أشركَ فلانٌ بالله، وذلك أعظمُ

الكُفرُ جُحودٌ في  
الدِّين، وجُحودٌ  
في النِّعمة،  
والشُّركُ أكبرُ  
وأصغرُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّاغِب، المفردات: (عبد)، والعسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 350.

(2) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 454، 455، والزَّاغِب، المفردات: (كفر).

الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]. والثاني: الشُّرك الصَّغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرِّياءُ والنِّفاقُ المشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَدَقَاتٍ وَبَدَّلَا إِلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190]، والشُّركُ خَصْلَةٌ واحدة، وهو إيجادُ إلهٍ مع الله، أو دونَ الله، ثمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ كُفْرٍ شُرْكٌ عَلَى وَجهِ التَّعْظِيمِ لَهُ، والمبالغة في صِفَتِهِ، ونقيضُ الكُفْرِ الإيمانُ، ونقيضُ الشُّركِ في الحقيقةِ الإخلاصُ، ثمَّ لما اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ كُفْرٍ؛ صارَ نقيضه الإيمان<sup>(1)</sup>.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 455، والرَّأب، المفردات: (شرك).

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،  
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12  
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

\*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة  
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م  
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي  
الطبعة الأولى: 2026م

\*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:  
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12  
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-  
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.

مج. 52 ، 818 صفحة ؛ 24x17 سم.

ردمك : 3-48-641-9948-978

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.  
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-  
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).  
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 3-48-641-9948-978

\*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،  
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

\*

الفئة العمرية : E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري  
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

\*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"